سلسلة الثقافة الإسلامية ٩٨

نقطة المفرق في حياة الإنسان

(من مشاهد الطف)

محمّد مهدي الآصفي

مختارات من محاضرات ومقالات

ومؤلفات الشيخ محمد مهدي الآصفي

- ٩٨ -

❊ ❊ ❊

اسم الكتاب: .... نقطة المفرق في حياة الإنسان

المؤلف: .... محمّد مهدي الآصفي

الطبعة الاولى: .... ١٤٣٢ هـ - ٢٠١٠م

الكمية .... ٥٠٠٠ نسخة

المطبعة:......... مطبعة مجمع أهل البيت عليهم السلام النجف الأشرف


بسم الله الرحمن الرحيم

نقطة المفرق في حياة الإنسان

أيام الفرقان

أيام (الفرقان) فترات ممتازة في التاريخ تُميّز الناس، وتشطرهم إلى شطرين أو أكثر. وحكمها في التأريخ حكم (المفرق) في حركة الناس على وجه الأرض.

فإن الطرق والمسالك العامة تجمع السالكين على الطريق الواحد، فإذا بلغوا المفارق تفرقوا إلى شطرين أو ثلاث أو أكثر... كذلك أيام الفرقان تُفرّق الناس الذين تجمعهم أيام العافية.

ويسمي القرآن يوم بدر ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾[1]، لأنّ هذا اليوم شطر الناس الذين كانت تجمعهم محافل مكة أيام اليسر والعافية والفراغ والبطر إلى شطرين متصارعين متقاتلين.

وليس دائماً يستطيع الإنسان أن يعيش مع كل الناس

---

(١) يقول تعالى عن يوم بدر في سورة الأنفال الآية ٤١: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾.

ويجاملهم، ويلقاهم، ويعاشرهم جميعاً. فإن الله تعالى قد جعل في التاريخ، وفي حياة الناس أياماً، لابد لهم فيها من (القرار) الذي يفصله عن الناس فيما يفعلون، وفيما يقولون، وفي الحرب والسلم، وفي المواصلة والمقاطعة، وفي الإقبال على الله أو الإعراض عن الله... وهذه هي أيام الفرقان.

عاشوراء من أيام الفرقان

ويوم عاشوراء من أيام الفرقان في تاريخ الإسلام، شطر الناس شطرين مختلفين، بعد أن كانت تجمعهم أيام العافية واليُسْر: شطر وقف مع الحسين عليه السلام وقاتل بني أُمية، والشطر الآخر وقف مع بني أُمية، وقاتل الحسين عليه السلام أو آزر بني أمية وأيدهم وخذل سيد شباب أهل الجنة عليه السلام في خروجه على بني أمية.

والناس يختلفون في القوّة والضعف، والشجاعة، والجبن، والإيمان والنفاق، والعطاء والشح، والولاء والبراءة، ولكنهم لا يتمايزون عن بعض كثيراً في أيام العافية واليُسْر، فتجمعهم الأسواق، والمساجد، والمجامع من دون تمييز، ومن دون أن يعرف بعضهم بعضاً، حتّى من دون أن يعرف الإنسان نفسه،

في بعض الأحيان، فإذا جاءت أيام الفرقان تمايز الناس فيما بينهم وافترقوا، وانكشف للآخرين ولهم أحياناً من أنفسهم ما كانوا يجهلونه من قبل.

ويوم عاشوراء من أيام الفرقان في التاريخ، شطر الناس إلى ثلاثة أشطر: شطر من الناس سقطوا في فتنة الدنيا واستسلموا لأهوائهم، وهلكوا. والشطر الآخر من الناس تحرّروا من سلطان الهوى، وتجاوزوا الفتنة، ولكن بمعاناة وجهد كبيرين، إلاّ إنهم بلغوا شاطئ الأمان أخيراً ووصلوا إلى لقاء الله.

والشطر الثالث من الناس أسرعوا إلى لقاء الله خفافاً من دون معاناة ولا عذاب، ولا ترديد، وفصلوا أنفسهم عن الفتنة، كما تفصل الشعرة من داخل اللبن.

وهذه حالات ثلاثة في الإقبال والإعراض عن الله توجد في كل زمان ومكان، إلاّ أن الناس لا يتمايزون فيما بينهم بعضهم عن بعض أيّام العافية والبطر والفراغ، فتميزهم (أيام الفرقان).

فلنتأمّل في هذه الطوائف الثلاثة التي أفرزتها عاشوراء.

الطوائف الثلاثة يوم عاشوراء

الطائفة الأولى

وهي التي سقطت في الفتنة.

إنّ هذه الطائفة لم تكن تحب السقوط في الفتنة، من أوّل الأمر، ولم تكن ترفض الحقّ، ولا تحب الإعراض عن الله، وكانت تحب الله، وتطلب الحقّ، وهذا أمر غرسه الله تعالى في فطرة كل إنسان، وهؤلاء لا يشذّون عن سائر الناس. هذا أوّلاً.

وثانياً: كانت تحب أن يجمع الله لها بين الدين والدنيا، وكانت تريد أن تنعم بهما معاً. وهذا أمر مغروس في نفس كل إنسان، فإن الله تعالى خلق في نفوسنا أهواءً وشهوات، وهي جزء من كياننا النفسي.

وثالثاً: كان النزوع إلى الدنيا هو النزوع الأقوى والنزوع إلى الله هو الأضعف في نفوسهم.

إلاّ أنهم لم يكونوا يعرفون من قبل أن يبلغوا المفرق هذه الحقيقة من نفوسهم، ولم يكن الناس يعرفون منهم هذه الخصلة حتّى بلغوا نقطة المفرق (الفرقان).

ونقطة المفرق فضحتهم للآخرين، وكشفتهم لأنفسهم.

الطائفة الثانية

وهي التي تجاوزت الفتنة، وبلغت شاطئ الأمان، ولكن بعذاب ومعاناة. وعند التحليل نجد:

١ - إن هذه الطائفة كانت تحبّ أن تنعم بالدنيا ونعيمها ولذاتها، ولم تكن تكره هذه الدنيا التي يتمتع بها الناس.

٢ - وكانت تتمنى أن يجمع الله لها بين الدين والدنيا. ويجنبها المفارق، التي تضطرهم إلى الاختيار الصعب، ويتمنون أن تكون أيامهم كلها عافية، يجمع الله لهم بين الدين والدنيا، فيؤدون حقّ الله تعالى، كما يحب الله، وينعمون بدنياهم كما تهوى أنفسهم.

٣ - ولكنهم كانوا يحرصون ألاّ يكون النزوع إلى الدنيا في نفوسهم هو النزوع الأقوى، وأن لا يسلبهم النزوع إلى الدنيا السلطان على أنفسهم، ولا يسلبهم القرار والاختيار، وبالتالي كانوا يحرصون أن يحافظوا في أنفسهم على حريّة القرار، وسلامة الضمير، رغم أنهم كانوا يدخلون الدنيا التي يدخلها الناس، وينعمون بما ينعم بها الناس من هذه الدنيا.

٤ – فإذا بلغوا نقطة المفرق (الفرقان) حيث يجب عليهم أن يختاروا أحد الطريقين، إمّا إلى الله، وإمّا إلى الدنيا، ملكوا من أنفسهم حرية القرار، ولم يفقدوا السلطان على أنفسهم وعلى القرار، وانحازوا من الدنيا إلى الآخرة، ومن الباطل إلى الحقّ، ومن الهوى والطاغوت إلى الله، ولكن بمشقة ومعاناة، وكأنهم ينتزعون أنفسهم من الدنيا انتزاعا.

وهذا هو (القرار الصعب) في حياة الإنسان. فإن القرار في حياة الناس على نحوين: القرار الصعب والقرار السهل، والقرار في حياة هؤلاء في نقطة المفرق من أصعب الأُمور، إلاّ أنهم يفلحون أخيراً في انتزاع أنفسهم من سلطان الدنيا، ويقبلون على الله مهما كلّفهم الأمر.

ونقرأ في كتاب الله صورة عن هؤلاء في أصحاب بدر من صحابة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. وقد كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الذين شهدوا معه معركة بدر ووقفوا فيها معه صلّى الله عليه وآله وسلّم قمة في الإيمان والثبات والتضحية، ولا يزال يضرب بهم المثل في الإيمان والإخلاص والتضحية.

ولكن القرآن يعكس لنا صورة عن معاناتهم النفسية

الشديدة في مواجهة أعدائهم من مشركي قريش تدعوا إلى التأمل... يقول تعالى فيهم ﴿**كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ**﴾[١] أرأيت كيف ينتزع الإنسان نفسه من الدنيا وهو يساق إلى الموت، ويشهد الموت أمام عينيه، كذلك كان أُولئك الخيّرون الصالحون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في بدر.

ولكنهم مع ذلك لم يتوانوا عن الاستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقبلوا على القتال، وقاتلوا وقتلوا ونالوا الشهادة، ورضي الله عنهم، ورفع لهم في الجنة مقاماً علياً مع النبيين والمرسلين والصالحين، وحسن أُولئك رفيقاً.

٥ – هؤلاء يؤيدهم الله بما يبذلون من جهد في تخليص أنفسهم من سلطان الهوى أو الدنيا، ويرزقهم أمرين، وأي أمرين؟

يرزقهما البصيرة والنور والهدى حتّى لا يضلّوا الطريق، ولا يتيهوا، أوّلاً، ويرزقهما القوة والدعم والإسناد حتّى لا

---

(١) الأنفال: ٦.

يضعفوا عن إتمام قرار الحركة الصعبة على طريق ذات الشوكة ثانياً.

ولا يحتاج الإنسان إلى غيرهما في السلوك، فإن كل ما يحتاجه الإنسان في السلوك إلى الله: بصيرة ونور يهتدي بهما، ولا يضل الطريق، وقوة ودعم وإسناد، من الله ليكّمل السير.

وقد ضمنهما الله تعالى لكل من يجاهد نفسه من عباده في السلوك والحركة إلى الله تعالى، يقول تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1].

الهداية أوّلاً: وهي نور وبصيرة، ومعية الله ثانياً: وهي قوة ودعم وإسناد من عند الله لعباده. فإذا عرف الله تعالى من عبده صدق العزم والنية آتاه هذا وذاك، وييسّر الله له هذا السلوك الصعب.

الطائفة الثالثة

وهي التي تخفّ إلى لقاء الله براحة، من دون معاناة، وتتجاوز الدنيا وما يحفّها من الفتن من دون عناء ولا مشقة،

---

(١) العنكبوت: ٦٩.

وكأنهم لـم يـدخلوا الـدنيا قـط، حتّـى ينتزعـوا أنفسـهم منهـا انتزاعا.

هــؤلاء يعيشــون مــع النــاس فــي دنيــاهم، ولا يعيشــون معهـم.يتحركـون مع النـاس فـي الأسـواق وسـاحات الحيـاة بأجسامهم، ولكن قلوبهم لم تتعلق بالدنيا قط.

ونـذكر مـن هـؤلاء نمـوذجين مـن فتيـان بنـي هاشـم فـي كربلاء وهما عليّ الأكبـر، والقاسـم بـن الحسـن عليهما السلام. هـذان الفَتَيان لم يترددا قط في الاستجابة لنـداء الله ورسـوله صلى الله عليه وآله وسلم وأوليائه، ولم يدخل حب الدنيا قط في قلوبهم، ولـم يفكـروا أن يجمعـوا بـين الـدنيا والـدين، كمـا يجمـع النـاس، ولـم يتحرّجوا في نقطة المفرق التـي تفّـرق النـاس، وتجبـر النـاس على اتخاذ القرار.

هؤلاء تلقّوا دعوة الحسين عليه السلام من دون أيّة معاناة، وخفّوا للقاء الله، كما يخفّ أحدنا لما يحدوه الشـوق إليـه، مـن دون تردّد، ولا توقف، ولا تأمّل، ولا معاناة.

ولعلّ فترة الشباب في حياة الإنسان أفضـل فتـرة للتحضـير لمثل هذه الحالة من خفّة الـروح. فـإن قلـوب الشـباب غضـة طريّة، لم تتمكن منها الدنيا، ولـم تتعلق هي بالدنيا بعـد، ليشـقّ

عليهم انتزاعها من الدنيا. . وكلّما يمر على الإنسان يوم في التعامل مع الدنيا، يزداد تعلقاً بالدنيا، وإقبالاً عليها.

في هذه الفترة من عمر الإنسان بالذات، يختلط القرآن بقلوب الشبان وعقولهم بسرعة، إذا أقبلوا على القرآن.

عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرء القرآن، وهو شاب أختلط القرآن بلحمه ودمه»(١).

في هذه الفترة من العمر يسهل على الشبان أن يحفظوا أنفسهم ويحفظوها من الاستغراق في الدنيا، لأن الدنيا لم تتمكن بعد من قلوبهم، وليس كذلك من تقدّم به العمر، ولذلك يجري القرآن على قلوبهم كما يجري الماء على التربة الصالحة.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلاّ ظله: الإمام العدل، وشاب نشأ في عبادة الله»(٢).

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من شيء أحبّ إلى الله من

---

(١) وسائل الشيعة ٢: ١٤١.

(٢) مجمع البيان ٢: ٣٨٥.

شاب تائب»[1].

المقارنة:

هؤلاء ثلاثة نماذج من الذين شهدوا عاشوراء..

وفيما يلي نأخذ بدراسة تحليلية في مقارنة هذه النماذج الثلاثة بعضها ببعض:

فنقارن أوّلاً بين نموذج من الطائفة الأُولى وآخر من الطائفة الثانية، وهما عمر بن سعد والحر بن يزيد الرياحي رحمه الله، ثمّ نأخذ بمقارنة اُخرى بين نموذج من الطائفة الثانية ونموذج من الطائفة الثالثة، وهما الحر بن يزيد الرياحي وزهير بن القين رحمهما الله.

مقارنة بين الطائفة الأُولى والثانية

ونختار لهذه المقارنة من ساحة عاشوراء نموذجين معروفين واضحين.

النموذج الأوّل: هو الحر بن يزيد الرياحي رحمه الله من الطائفة الثانية.

---

(١) مشكاة الأنوار : ١٥٥.

والنموذج الثاني: هو عمر بن سعد من الطائفة الأُولى.

وكل منهما من أبطال المعسكر الذي ينتمي إليه. الأوّل من معسكر الحسين عليه السلام والثاني من معسكر الأُمويين، وبين الشخصين تشابه عجيب يلفت النظر، ويدعو للدراسة والتأمل والتحليل.

١ - كلاهما قائدان مرموقان معروفان في الجيش الأُموي، وسيّدان في قومهما. فهما ينزعان إلى الدنيا نزوعاً قوياً، ويحبان أن ينعما فيها بالزعامة والدعة والسيادة والاحترام.

٢ - وكل منهما يحب أن يجمع لنفسه بين الدنيا والدين. ولا يحب أن يفرط بأحدهما... هذا قبل نقطة المفرق التي يفترق فيها الدين عن الدنيا، ولابد للإنسان فيها من الاختيار والقرار.

٣ - وكل منهما يحاول أن يتجنب نقطة المفرق التي يفترق فيها الدين عن الدنيا، ولابد فيها من الاختيار والقرار.

وها نحن نقرأ قصة محاولة كل منهما في الابتعاد عن نقطة المفرق (الفرقان).

قصة عمر بن سعد ومحاولته للتخلص من قتال الحسين (ع):

روى الطبري قصة عمر بن سعد عندما أمره ابن زياد

بالخروج إلى قتال الحسين عليه السلام، وكان عمر بن سعد يومئذ معسكراً بـ (حمام أعين) في أربعة آلاف ليسير بهم إلى (دَسْتَبِي)[١] و(الدّيلم) حيث ولاّه ابن زياد عليهما... فأمره ابن زياد: أن يتوقف عن المسير إلى (دستبي) و(الديلم) ويتوجه إلى قتال الحسين عليه السلام قبل ذلك ثم يسير إلى (الري ودستبي والديلم).

فاستعفاه عمر بن سعد. وهذه هي المحاولة الأُولى لابن سعد في تجنب نقطة المفرق (الفرقان)، فلما هدّده ابن زياد باسترداد عهد إمارة الري منه أستمهله ليله ليفكر في الأمر[٢].

ونلاحظ في المحاولة الأُولى لتجنب نقطة المفرق: أن ابن سعد ضعف عن رد ابن زياد عندما هدده باسترداد عهد الإمارة منه، ولم يحسم الأمر. وكان بوسعه أن يرجع إليه عهده، ويتخلص من هذا الإثم العظيم الذي دعاه إليه ابن زياد ويواجه تهديد ابن زياد بعزم وحزم وحسم يكافؤه.

---

(١) هذه المنطقة تقع بين همدان وري في الجغرافية التاريخية في ذلك الوقت، ولا نعرف هذه المنطقة على الخارطة الجغرافية الحديثة.
(٢) راجع تاريخ الطبري ٦: ٢٣٢.

ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، وإنما استمهله ليله ليفكر ويقرر...!!!

وهذه أُولى أمارات الضعف في القرار، عرفها عنه ابن زياد، وعرف بها نقطة الضعف في شخصية صاحبه الذي يريد أن يبعثه إلى قتال الحسين عليه السلام، فأستشار عمر بن سعد ليله أصدقاءه ونصحائه فنهوه عن المسير إلى قتال الحسين عليه السلام، وشدّدوا عليه، وقال له ابن اُخته حمزة بن المغيرة بن شعبة: (أنشدك الله أن لا تسير لحرب الحسين، فتقطع رحمك، وتأثم بربك. فوالله لئن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض كله، لو كان لك، لكان خيراً لك من أن تلقى الله بدم الحسين).

(فقال ابن سعد: أفعل إن شاء الله[(١)]).

وعند الصباح أتى ابن زياد، وقال: إنك وليتني هذا العمل (يعني ولاية دستبي والديلم). وقد سمع به الناس، فأنفذني له (إلى ولاية دستبي والديلم)، وابعث إلى الحسين عليه السلام من

(١) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ٢١٤.

لست أغني في الحرب منه، وسمى له ناساً من أشراف الكوفة.

وهذه هي المحاولة الثانية لعمر بن سعد في الفرار من (نقطة المفرق).

ولكن ابن زياد لما عرف ضعف صاحبه احتقره. وقال له: (لست أستأمرك (أستشيرك) فيمن أريد أن أبعث فإن سرت بجندنا، وإلاّ فابعث إلينا عهدنا)[١].

وهكذا فشل عمر بن سعد في كل من هاتين المحاولتين أن يتجنب نقطة المفرق، ولو نجح لسلم له دينه ودنياه معاً، وبلغ عمر رغم هذا الجهد الفاشل حافّة المفرق تماماً.

ولنترك عمر على حافة المفرق لننظر في قصة الحر رحمه الله عند هذه النقطة.

قصة الحر رحمه الله ومحاولته للتخلص من قتال الحسين عليه السلام:

والآن نلقي نظرة إلى الحرّ بن يزيد الرياحي رحمه الله، في نفس النقطة لنجد كيف يحاول هذا القائد العسكري الشريف

(١) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ٢١٤ـ ٢١٥.

لجيش بني اُمية أن يتجنب هـذه النقطـة، ويسـلم مـن الابـتلاء بقتال سيد شباب أهل الجنة، من غير أن يفرّط في دنياه شـيئاً، فلا يستطع.

يقول أرباب السير:

إنّ الحرّ التقى الحسين عليه السلام بمنزل (ذي حُسَـمْ)[1]، فطلـب من الحسين عليه السلام أن يرافقه حتّى يقدم به إلى الكوفة على ابـن زياد!!.

فقال له الحسين صلى الله عليه وآله وسلم: «الموت أدنى لك من ذلك».

فقـال الحـرّ: (خـذ طريقـاً نصـفاً بينـي وبينـك، لا يـدخلك الكوفة، و لا يردك إلى المدينة، حتّى أكتـب إلـى ابـن زيـاد. ولعل الله أن يرزقني العافية، ولا يبتليني بشي من أمرك.

ثمّ قـال للحسـين عليه السلام: «إنـي اذكّـرك الله فـي نفسـك فـأني أشهد لئن قاتلت لتقتلن»[2].

إذن فـإن الحـر يحـاول صـادقاً أن يعافيـه الله مــن قتـال الحسين عليه السلام ولا يقع في هذا الإثم الذي ليس فوقه إثم، ويلتمس

---

(١) جبل كان النعمان بن المنذر يصطاد فيه.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرم: ١٩٦.

لنفسه السبيل إلى ذلك، ويقترح على الحسين عليه السلام أن يجنبه الابتلاء بشي من أمره.

وإذا كان الحر رحمه الله صادقاً في هذه المحاولة، فعلينا أن نقول إنه لم يكن يريد أن يفرط في شيء من دنياه إلى هذا الحد من القصة.

٣ - ولكنهما رغم هذه المحاولات كلها يصلان إلى نقطة المفرق الذي كانا يفرّان منها، وتواجههما نقطة الفرقان، حيث لابدّ أن يختار الإنسان بين الدنيا والآخرة أحدهما وليس بوسعه أن يجمع بينهما.

وها هنا يتميز أحدهما عن الآخر، فيضعف عمر بن سعد عن (القرار الصعب)، ويستجيب لدعوة ابن زياد، ويذهب بالجيش لقتال الحسين عليه السلام ويبوء بعار الدنيا وعظيم عذاب النار في الآخرة.

ويقوى الحر رحمه الله على اتخاذ القرار الصعب في اللحظة الأخيرة، وتسلم له آخرته، ويذهب بشرف الدنيا والآخرة، ولكنه يخسر الإمارة التي حرص عليها عمر بن سعد، وأهون بها من خسارة.

فلنواصل قراءة قرار كل من هذين الرجلين عند نقطة

المفرق.

عودة إلى عمر بن سعد عند نقطة المفرق

يقول أرباب السير، إن عمر بن سعد بات ليلته كلها في قلق وحيرة، بعد أن هدّده ابن زياد بسحب الإمارة منه، وكان يردد هذين البيتين الذين يرويهما عنه المؤرخون:

أأترك ملك الري، والري منيتي
أم أرجع مأثوماً بقتل حسين
وفي قتله النار التي ليس دونها
حجاب، وملك الري قرة عيني

وهذان البيتان يعكسان معاناة الرجل النفسية، وعذاب الضمير الذي كان يعاني منه، إلاّ أنه عجز أخيراً من أن يأخذ القرار الصعب، وأستسلم لفتنة ملك الري، واسترخى عزمه وباع آخرته وكرامته وضميره بملك الري مقاومة الرجل، واستجاب لطلب ابن زياد.

الحرّ (رحمه اللّه) عند نقطة المفرق

ولكن الحر رحمه الله عند نقطة المفرق كان له شأن غير هذا الشأن. لقد وجد نفسه عند نقطة المفرق بين الجنة والنار

تماماً، ولابدّ من أن يختار، وكان يعرف أن اختيار الجنة على النار يذهب بدنياه كله، ولابد له من الاختيار والقرار، فاختار الآخرة على الدنيا، واختار مرضاة الله على هوان، ودفع الضريبة... وفاز وأفلح.

يقول المهاجر بن أوس: وجدت الحر يوم عاشوراء، وقد أخذه مثل الأفكل (الرعدّة).

فقلت له أن أمرك لمريب. والله ما رأيت منك في موقف قط مثل هذا. ولو قيل لي من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك. فما هذا الذي أرى منك؟

فقال له الحر: أني والله اُخيّر نفسي بين الجنة والنار، فوالله لا أختار على الجنة شيئاً، ولو قطعت وحُرّقت[١].

ولكن يبقى أن نقول إنّ هذا القرار كان قراراً صعباً في حياة الحر رحمه الله بالغ الصعوبة، فيأخذه مثل الأفكل (الرعدة)، وهو يعبر عن عمق المعاناة التي كان يتطلبها منه مثل هذا القرار.

---

(١) الإرشاد للمفيد: ٢٣٥.

مقارنة بين الطائفة الثانية والثالثة

والآن ندخل في مقارنة ثانية بين الطائفة الثانية والثالثة.

وهذه المقارنة أصعب من المقارنة الأُولى ولكن لابد لنا منها لإكمال هذا البحث، فنقول:

١ - كلتا الطائفتين (الثانية والثالثة) تفلحان في تجاوز الفتنة عند نقطة الفرقان، ويفدان على الله، ويؤثران لقاء الله على ما في أيدي الناس، ويتخذان هذا القرار في اللحظات الصعبة عند مفترق الطرق. وإنما يحتاج الإنسان إلى (القرار) عندما يقف على مفترق الطرق، في اللحظات الصعبة.

فهما يملكان إذن مقوّمات هذا القرار ويفلحان في تجاوز الفتنة، وفي الوفود إلى الله.

ويشتركان إلى هذا الحد، وهو أهم ما في هذا الأمر.

٢ - ولكن الطائفة الثانية تقطع هذا الشوط الصعب من الطريق بمشقة وصعوبة، وجهد بليغ، ومعاناة، بينما تقطعه الطائفة الثالثة بيسر وراحة، ومن غير معاناة.

وإذا اشتركا في القرار فهما يختلفان في كيفية القرار. لقد سمع علي الأكبر عليه السلام أباه يسترجع، وهو راكب على فرسه، فيقول له: «**لا أراك الله سوءاً يا أبت مم أسترجعت**؟.

قال: يا بني إني خفقت برأسي خفقة فعنّ لي فارس فقال: القوم يسيرون والمنايا تسير بهم. فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا. فقال له يا أبت لا أراك الله سوءً: أولسنا على الحقّ؟

فيقول الحسين عليه السلام: بلى والذي إليه مرجع العباد.

فيقول علي بن الحسين عليه السلام: إذن لا نبالي نموت محقين»(١). هكذا براحة ويسر، ومن دون معاناة.

إنّ علي بن الحسين عليه السلام لم يلق أيّ مشقة أو عناء في

(١) قال أبو مخنف قال عقبة بن سمعان: فلما أرتحلنا من قصر بني مقاتل، وسرنا ساعة خفق الحسين عليه السلام رأسه خفقة، ثمّ أنتبه وهو يقول إنا لله وإنا إليه راجعون والحمد لله رب العالمين. ففعل ذلك مرتين أو ثلاثاً. فأقبل إليه علي بن الحسين عليه السلام على فرس له، فقال، إنا لله وإنا إليه راجعون، والحمد لله رب العالمين. يا أبت جعلت فداك مِمَّ حمدت الله وأسترجعت؟
قال عليه السلام: يا بني إني خفقت برأسي خفقة فعن لي فارس على فرس، فقال: (القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم. فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.
قال له يا أبت – لا أراك الله سوءً – أولسنا على الحقّ؟
قال عليه السلام: بلى والذي إليه مرجع العباد.
قال: يا أبت، إذن لا نبالي، نموت محقين.
فقال له: جزاك الله خيراً من ولد خير ما جزى ولداً على والده.
تاريخ الطبري ٧: ٣٠٧ الطبعة الأُوربية، حوادث سنة (٦١ هـ).

اتخاذ مثل هذا القرار.

ويسأل القاسم بن الحسن عليه السلام ليلة العاشر عمه الحسين عليه السلام عن شهادته في غد، وقد بشر أصحابه بالشهادة يوم عاشوراء، وهو حينئذ لم يتجاوز سن المراهقة: فيقول له الحسين عليه السلام «وكيف الموت عندك؟»، فيقول: أحلى من العسل يا عم.

فيبشره الحسين عليه السلام عندئذ بالشهادة يوم عاشوراء.

وشتّان بين قرار علي الأكبر والقاسم عليهما السلام، وقرار الحر بن يزيد الرياحي رحمه الله.

إنّ القاسم وعلي بن الحسين عليهما السلام لم تدخل الدنيا في قلبيهما قط، ولم يتعّلق قلباهما بالدنيا قط، حتّى يشق عليهما أن ينتزعا قلبيهما من الدنيا. وليس الأمر كذلك في الحرّ رحمه الله.

فقد انتابه مثل (الأفكَل[1]) عندما قرر الإقلاع عن الدنيا والوفود على الله مع الحسين عليه السلام.

إنهما يشتركان في الوفود على الله والعروج إليه تعالى، ولكن كل منهما بطريقة تختلف عن الآخر.

---

(١) وهي الرعدة من برد أو خوف.

قلت: إنّ القاسم قال لعمه الحسينعليه السلام ليلة العاشر، عندما سأله: كيف تجد الموت عندك، قال: (يا عم أحلى من العسل)، مترسلاً، من غير تكلف، ولا تأمل، وهو يشبه كلمة جده الإمام أمير المؤمنينعليه السلام عندما سأله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كيف صبرك على الشهادة، فقال: يا رسول الله، ليس هذا من مواطن الصبر ولكن من مواطن البشرى والشكر»[1].

وهذه الكلمة العلوية فارقة بين نحوين من التعامل مع الشهادة: الأول: انتزاع النفس بصعوبة ومشقّة من الدنيا، والثاني: الإقبال على الموت بغير جهد ولا معاناة، كما يقبل الناس على رغباتهم وشهواتهم بسرور وسعادة، وهما حالتا الصبر والشكر، وكل منهما فضيلة لا شك في ذلك. الصبر

(١) الكلمة في نهج البلاغة ٢: ٤٨ من كلام له رقم ١٥٦. قلت يا رسول الله: أو ليس قد قلت لي يوم اُحد حيث أستشهد من استشهد من المسلمين، وحيزت عني الشهادة فشق ذلك عليّ، فقلت لي: أبشر فأن الشهادة من ورائك.

فقال لي: إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت يا رسول الله. ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر.

على الشهادة فضيلة، والشكر على الشهادة فضيلة، إلاّ أن الذي يتلقى الشهادة شاكراً، ويتعامل معها كما يتعامل مع أي نعمة من نعم الله لا يجد مشقة في القرار... وكيف يشق على الإنسان القرار إذا طلب منه أن يقبل على نعمة من نعم الله.

وأما الذي يتلقّى الشهادة، إبتلاءً من جانب الله، فهو يحتاج إلى كثير من الصبر والمعاناة والجهد لقبول الإبتلاء... كلّ منهما فضيلة، لا شك في ذلك.

ولكن أيّهما أفضل عند الله؟

لا أعلم... ولا أحبّ أن أدخل هذا المدخل من السؤال والجواب.

فإن كلاً منهما يفد على الله ببضاعة تختلف عن الأُخرى.

إن الحرّ يفد على الله بمعاناة وجهد كبيرين، وهذه بضاعة يحبّها الله تعالى...وكلما يتطلب العمل جهداً ومعاناة أكثر من الإنسان، يكون أرضى وأحبّ إلى الله تعالى.

وقد روي: «إن أفضل الأعمال أحمزها[١]».

(١) خبر مشهور بين الخاصة والعامة أورده ابن الأثير في النهاية ١: ٤٤٠

ويفد الشابان الهاشميان علي بن الحسين والقاسم بن الحسن عليهما السلام على الله بقلب غضّ سليم لم يتعلق بالدنيا قط، ولم تتمكن منه الدنيا قط، حتّى يجدا مشقة في إنتزاعه من الدنيا، وهذه بضاعة أُخرى يحبها الله تعالى، يقول تعالى: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾(١)، كما يحب الله (الكدح) على طريق ذات الشوكة، فكل منهما وفد على الله ببضاعة يحبها الله تعالى الجهد والجهاد والمعاناة، والقلوب النقية التي لم تتعلق بالدنيا ولم يتمكن منها الدنيا.

٣ – ونتساءل لماذا يدع الإنسان الدنيا وطيباتها إذا كان من الحلال؟

ولماذا يهجر الإنسان الدنيا ولا يدخلها، إذا كانت دنياه حلالاً؟ وهل يدخل هذا المنهج السلوكي في الإسلام؟

أقول: إنّ من حقّ المؤمن أن ينعم بطيبات الحياة الدنيا،

باب (حمز) في حديث ابن عباس (سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أي الأعمال أفضل؟ فقال أحمزها) أي أقواها وأشدها. انظر الصحاح٣: ٨٧٥ مادة حمز. ومجمع البحرين.

(١) الشعراء: ٨٨ – ٨٩.

وليس له أن يُحَرّم ما أحل الله له من الطيبات.

وهذان أصلان هامان في الشريعة، يدل على الأوّل منهما قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ﴾[1]. ويدل على الأصل الثاني قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾[2] وليس في هذا ولا ذاك شك.

ولكن إلى جنب هذا وذاك هناك أصل ثالث لا يقل أهمية عنهما، وهو أن لا يأخذ الإنسان من الدنيا الكثير الذي يشغله عن ذكر الله، ويستدرجه إلى التعلّق بالدنيا، حتّى من الطيّب الذي أحلّه الله. ذاك أن الإشتغال بالحياة الدنيا يُلْهي الإنسان عن ذكر الله، حتّى لو طاب مورده، وكان حلالاً في دين الله، فإن قلب الإنسان سرعان ما يتعلق بالدنيا، إذا طابت له الدنيا، وأكثر منها.

---

(١) البقرة: ١٧٢.

(٢) المائدة: ٨٧.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصالحون من عباد الله يحرصون ألاّ يكثروا من طيبّات الحياة الدنيا. فقد روي إن بعضهم قدم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبيصاً (نوع من الحلوى)، فأبى أن يأكله، فقيل أتحرمه؟ قال: لا، ولكن أكره أن تتوق نفسي إليه، ثمّ تلا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾[1].

وهذه حقيقة: إن الإنسان إذا أكثر من الطيبات تتوق إليها نفسه، وإذا تاقت نفسه إلى طيبات الحياة الدنيا، تمكّنت منه، وسلطان الدنيا على قلوب الصالحين على قدر حظوظهم من الدنيا.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كلما فاتك من الدنيا شيء فهو غنيمة»[2].

إنّ الله تعالى لم يحرم على عباده الطيبات من الرزق والإكثار منها، إذا كان من حلال. ولكن الإكثار منها يترك

(١) نور الثقلين ٥: ١٥والآية من سورة الأحقاف: ٢٠.
(٢) عيون الحكم والمواعظ للواسطي ط.١ دار الحديث. وميزان الحكمة للريشهري ٢: ٩١٢ نقلا عن غرر الحكم.

هذا الأثر السلبي في نفس الإنسان، وهو التعلّق التدريجي بالدنيا أو الزحف التدريجي الهادئ للدنيا إلى قلبه.

وليس من بأس في دين الله أن يتمتع الإنسان بطيبات الحياة الدنيا، إذا تمكن الإنسان أن يحفظ نفسه في لحظة الصفر من الإنزلاق والسقوط. ولكن كيف يضمن لنفسه السلامة من السقوط في لحظة الصفر وأنّى له ذلك؟. وقد أسقطت الدنيا قبله الكثير من أمثاله، إنه المجازفة بعينها، ولاضمان فيها على السلامة من السقوط. هذا أوّلاً.

وثانياً: أن الإكثار من الدنيا يترك في نفس الإنسان آثاراً قهرية، لا سبيل للإنسان للتخلص منها، يشغله عن ذكر الله في بعض الحدود، ويسلب منه صفاء نفسه وشفافيتها، ويعكّر أجواء نفسه. حتّى وإن كان الإنسان يفلح أخيراً في السيطرة على هواه، ويتوفق في إتخاذ القرار الصحيح في لحظة الصفر.

وهذا هو الفارق بين الطائفة الثانية والطائفة الثالثة.

مقارنة أُخرى بين الحرّ وزهير (رحمهما اللّه).

بين الرجلين تشابه كبير، كل منهما كان زعيماً في قومه. كان الحرّ رَحِمَهُ اللهُ قائداً من قادة الجيش الأموي. وكان زهير

أموي الهوى (عثمانياً) كما ورد في الرواية.

فكل منهما كان معرضاً عن الحسين عليه السلام، وكان سبب انحراف زهير رحمه الله عن الحسين عليه السلام حجاب في الرأي والفهم، ولم يكن هذا الحجاب من نوع الهوى وفتن الحياة الدنيا، فلما تبين له الحقّ، واتضح له خطاه في الرأي والتقدير لم يتردد لحظة واحدة في تغيير مسار حياته، وكان هذا التغيير انقلاباً كاملاً في حياته.

فلنقرأ قصة هذا الإنقلاب في حياة زهير رحمه الله برواية الطبري عن أبي مخنف.

تحليل لموقف زهير

روى الطبري عن أبي مخنف، قال أبو مخنف: حدثني السدي عن رجل من بني فزارة، لما كان زمن الحجاج بن يوسف كنا في دار الحارث بن أبي ربيعة مختبئين فيها... فقلت للفزاري: حدثني عنكم حين أقبلتم مع الحسين بن علي عليه السلام.

قال: كنّا مع زهير بن القين البجلي، حين أقبلنا من مكة نساير الحسين عليه السلام، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره،

فـإذا سـار الحسـين عليه السلام تخلـف زهيـر بـن القـين، وإذا نـزل الحسين عليه السلام تقدم زهير، حتّى نزلنا يومئذ فـي منـزل لـم نجـد بُداً من أن ننازله فيه.

فنزل الحسين عليه السلام في جانب، ونزلنا في جانب، فبينا نحـن جلوس نتغدى من طعام لنا إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتّـى سلّم ثمّ دخل فقال: يا زهير بن القين إن أبـا عبـد الله الحسـين بن علي عليهما السلام بعثني إليك لتأتيه.

قال فطرح كل إنسان ما في يده حتّى كـأنّ علـى رؤوسـنا الطير.

قال أبو مخنف: فحدثتني (دلهم بنـت عمـرو) امـرأة زهيـر بن القين.

قالت: فقلت له: أيبعث إليـك ابـن رسـول الله ثـمّ لا تأتيـه، سبحان الله، لو أتيته فسمعت من كلامه، ثمّ انصرفت.

قالت: فأتاه زهير بن القين. فما لبث أن جاء مستبشـراً. قـد أسفر وجهه.

قالـت: فـأمر بفسـطاطه وثقلـه ومتاعـه، فقـدم وحمـل إلـى الحسين عليه السلام، ثمّ قال: لامرأته أنت طالق. إلحقي بأهلك فـإني

لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلاّ خيراً.

ثمّ قال لأصحابه: «من أحبّ منكم أن يتّبعني، وإلاّ فإنه آخر العهد مني»[1].

وفي هذه الرواية نجد حالات أربعة متعاقبة.

أوّلاً: صدود وأحجام عن اللقاء بالحسين عليه السلام حتّى كان يحرص ألاّ ينزل بماء في الطريق ينزل عنده الحسين عليه السلام، وهذا الصدود كان عن حجاب في الرأي والتقدير، كما قلنا، ولم يكن هذا الحجاب من نوع الهوى.

وثانياً: صدمة نفسية قوّية.

ووجوم وارتباك عند زهير رحمه الله وأصحابه، سلبهم القدرة على القرار عندما جاءهم رسول الحسين عليه السلام يبلغهم رغبة الحسين عليه السلام في لقائه.

وثالثاً: الانفتاح والذهاب إلى الحسين عليه السلام مع الرسول عندما تدخلت زوجته الصالحة الشجاعة «دلهم» رحمها الله، أدركت الموقف، وقطعت عليه حالة التردد، وطلبت منه أن

---

(١) تاريخ الطبري ٧: ٢٩٠ـ ٢٩١. الطبعة الاوربية، حوادث سنة ٦٠ هـ

يستجيب لدعوة ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقام مع الرسول إلى الحسين عليه السلام ليلقاه ويتحدث معه.

ورابعاً: الانفراج والاستجابة الكاملة للحسين عليه السلام من دون تردّد، ومن دون معاناة، وبعزم وقوة بعد اللقاء بالحسين عليه السلام.

وقد قرأنا هذه الحالات الأربعة تباعاً برواية الطبري، عن أبي مخنف عن السدي الذي روى القصة عن رجل من الفزاريين كان مختبئاً مع السدي في دار الحارث بن أبي ربيعة أيام الحجاج بن يوسف الثقفي خوفاً من الحجاج، وكان الرجل الفزاري مصاحباً لزهير رحمه الله في عودته من الحج إلى العراق.

فسأله السدي عن خبر زهير مع الحسين عليه السلام.

وإليك هذه الحالات الأربعة التي تناوبت على زهير رحمه الله في هذه الواقعة بإجمال:

١ ـ الصدود والإحجام

قال كنّا مع زهير بن القين، حين أقبلنا من مكة، نساير الحسين عليه السلام فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزل،

فإذا سار الحسين عليه السلام تخلّف زهير، وإذا نزل الحسين عليه السلام تقدّم زهير.

وهذه هي حالة الصدود والإحجام التي تحدثنا عنها من قبل.

٢ـ الصدمة والتردّد

حتّى نزلنا يوماً في منزل لم نجد بُداً من أن ننازله فيه، فنزل الحسين عليه السلام في جانب، ونزلنا في جانب، فبينما نحن نتغدى من طعام لنا، إذا أقبل رسول الحسين عليه السلام فسلّم ودخل. فقال: يا زهير أن أبا عبد الله الحسين بن علي عليهما السلام، بعثني إليك، لتأتيه، فطرح كل إنسان ما في يده، حتّى كأنّ على رؤوسنا الطير.

وهذه هي الصدمة التي كان يحاول زهير أن يتجنبها، فواجهها وجهاً لوجه فجأة، فسلبت منه المبادرة، وأوقعته في ارتباك وتردّد شديدين، لولا أن زوجته (دلهم) رحمها الله، أدركت الموقف بشجاعة، وسرعة.

٣ـ الانفتاح والذهاب إلى لقاء الحسين عليه السلام

فانبرت دلهم زوجة زهير(رحمها الله)، فقالت مستنكرة،

متعجبة: (أيبعث إليك ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ لا تأتيه. سبحان الله، لو أتيته، فسمعت كلامه، ثمّ انصرفت).

فاستجاب زهير لكلامها، وكأنما أكسبته (دلهم) شجاعة من شجاعتها بهذه الكلمة، فأقبل مع الرسول إلى الحسين عليه السلام.

٤ـ الانفراج والاستجابة

فتقول (دلهم)، والحديث لها، والرواية عن الطبري، عن أبي مخنف: (فما لبثَ أن جاء مستبشراً، قد أسفر وجهه، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه، فقوّض، وحمل إلى رحال الحسين عليه السلام.

ثمّ قال لي (والحديث لازال لدلهم): أنت طالق، والحقي بأهلك، فإني لا اُحبّ أن يصيبك بسببي إلاّ خيراً.

ثمّ قال لأصحابه: (من أحبّ منكم أن يتبعني، وإلاّ فإنه آخر العهد مني...) كل ذلك بسهولة وخفة وراحة، كما ينزع الإنسان ثوبه ويلبس ثوباً آخراً، من دون معاناة في القرار.

ولسنا نعلم ماذا قال الحسين عليه السلام لزهير رحمه الله، وماذا سمع زهير من الحسين عليه السلام، وماذا يمكن أن يقوله الحسين عليه السلام

لزهير في هذه الفرصة القصيرة. فلم يطل بقاء زهير عند الحسين كثيراً، والرواية تقول: (فما لبثَ أن جاء مستبشراً) وهذه الكلمة تدل على أن لقاء زهير بالحسين عليه السلام لم يطل حتّى انقلب زهير من الأُموية إلى العلوية. استجابة سريعة للحسين عليه السلام لم يتردّد فيها زهير رحمه الله، ولم يتوقّف عنها، ولم يطل به المقام حتّى استجاب للحسين عليه السلام.

وعناصر هذه الاستجابة:

١ – عزم وقرار لا ينثني عنه زهير بأي ثمن. حتّى قال لزوجته التي يدين لها في هذا الانقلاب: (أنت طالق)، ويقول لأصحابه: (قوّضوا رحلي إلى رحال الحسين).

٢ – السرعة والسهولة في اتخاذ القرار، من دون معاناة، ولا تردد (فما لبثَ أن جاء مستبشراً).

تحليل موقف الحّر رحمه الله

وليس أمر الحرّ (رضوان الله عليه) كذلك.

١ – ليس بين الحرّ وبين الإمام حجاب في الرأي، فهو يعرف الإمام عليه السلام ويصلّي بصلاته، ويقول للإمام لمّا خيّره بين أن يُصلي بصلاته أو يصلّي بأصحابه ويصلّي الإمام بأصحابه

(بل تصلي ونصلّي بصلاتك). ويذكر الإمام أُمّه فيقول له (ثكلتك أُمك)، فتشق عليه هذه الكلمة. ويقول والله لو ذكرها غيرك من العرب، لما تركت ذكر أُمّه، كائناً من كان، ولكن مالي إلى ذكر أمك من سبيل، إلاّ بأحسن ما نقدر عليه.

٢ – يطلب منه ابن زياد أن يأتي بالإمام عليه السلام مخفوراً إلى الكوفة، فينذره الإمام بالقتال، ويقول له: (الموت أدنى إليك من ذلك)، فيحاول أن يتخلص من المسؤولية التي ألقاها عليه أميره بأيسر الطرق، دون أن يقع في شيء من أمر الحسين عليه السلام، ويتمنى أن يعافيه الله تعالى من أن يقع في شيء من أمر الإمام، فيقول للإمام (خذ طريقاً نصفاً بيني وبينك، لا يوصلك إلى الكوفة، ولا يعيدك إلى المدينة)، فيوافقه الإمام عليه السلام.

٣ – ولكن خلال ذلك كله يحاول أن يتشبث بموقعه من جيش ابن زياد، ولا يريد أن يتجرد عما أوكله إليه ابن زياد من قيادة الجيش، إلاّ أنّ هذا التشبّث بالدنيا ومواقعها لا يسلب عنه أدب اللقاء بالإمام عليه السلام، وأدب اللقاء بالإمام لا ينفي عنه هذا التشبث.

٤ - ولكنه رغم كل ما يبذله من جُهد ليتجنب نقطة المفرق، الذي لابد له فيها من أن يختار أحدهما: الدنيا أو الآخرة، ولا يستطيع عندها أن يجمع بين الدنيا والآخرة... رغم ذلك كله يشاء الله ولا رادّ لمشيئته أن يبلغ (الحرّ) هذه النقطة المصيرية وذلك عندما ذهب يوم العاشر من محرم إلى عمر بن سعد في كربلاء، فقال له: أمقاتل أنت هذا الرجل، قال: (أي والله قتالاً أيسره أن تطيح فيه الرؤوس والأيدي).

٥ - عندئذ عرف الحُرّ أنه لابد له من أن يختار، ولا سبيل له إلى الجمع بين الدنيا والآخرة. فإما أن يختار الدنيا على الآخرة، أو يختار الآخرة على الدنيا.

٦ - فشقّ عليه القرار، وأخذه مثل الأفكَل (الرعدة)، وهي حالة فوق حالة القلق والإرتباك، ووجد نفسه في موضع لابد له فيها من أن يأخذ القرار بالأعراض والتخلي عن دنياه كلّها، وهو أمر كان يريد الحرّ رحمه الله أن يتجنّبه بكلّ جهده، وكان يسعى للتشبث بما أمكن منها، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً، ولا نعرف صراعاً داخل النفس الإنسانية أعنف وأضرى من هذا الصراع. فقد شهد الحرّ رحمه الله، عند لحظة

الصفر من حياته، في داخل نفسه، صراعاً بين الدنيا والآخرة، المسألة التي كان يتجنبها ويحذرها هذه المُدّة كلها، وكان يحاول أن يؤلف ويصالح بينهما، ولكن مشيئة الله تعالى فوق مشيئة الحُرّ، فواجه هذه النقطة وجهاً لوجه.

٧ – فأخذ القرار الذي لابد له منه، وضرب بفرسه إلى جانب الحسين عليه السلام، أمام دهشة أصحابه ودهشة الجيش، وقائد الجيش عمر بن سعد، الذي لم يكن يصدق ما تشاهده عينه من إنحياز الحُرّ رحمه الله إلى جانب الحسين عليه السلام في اللحظة الحرجة.

فيضرب (الحرّ) فرسه إلى جانب الحسين عليه السلام، وكأنّه يفرّ من شيء يطارده ويخافه، وقد كان الحُرّ شجاعاً لا يخاف من شيء، فلماذا يضرب الحرّ بفرسه إلى جانب الحسين عليه السلام، بهذه الصورة، وكأنّ شيئاً يلاحقه ويطارده... فمن هو هذا الذي يلاحق الحرّ ويخافه الحرّ على نفسه؟ وقد كان الحرّ موصوفاً بالشجاعة.

إن (الحرّ) يخاف من نفسه التي بين جنبيه أن تطارده، فتمنعه عن الانحياز إلى جانب الحسين عليه السلام، وتغريه بالدنيا،

فكان يريد أن يجعل نفسه أمام الأمر الواقع الذي لا يستطيع أن يتراجع عنه، فيضرب بفرسه إلى جانب الحسين عليه السلام بهذه الصورة ليضع نفسه أمام أمر واقع فيقف بين يدي الحسين عليه السلام، خجلاً، معتذراً، يطلب منه العفو، ليتوب الله عليه.

فجاء إلى الحسين عليه السلام مطأطئ الرأس خجلاً من موقفه من الإمام عليه السلام قبل أيام في طريقه إلى كربلاء. وهو يقول: هل من توبة؟ فقال له الإمام عليه السلام: (إن تبت تاب الله عليك).

رحمك الله (يا حرّ) كنت كما سمتك أمك حُرّاً، لا تلين للدنيا مهما كان إغراؤها.

رحمك الله يا حرّ، لئن شهد لك أصحابك بالشجاعة في ساحات القتال، فنحن نشهد أنك كنت في ساحة نفسك أكثر شجاعة وقوة، وأن القرار الصعب الذي اتخذته يومئذ، أمام حيرة الجيش ودهشته وقادة الجيش ينوء به الرجال الأشدّاء.

لقد أحبّك الله، وآثرك برفقة الحسين عليه السلام للقتال والشهادة إلى جانبه، والذبّ عنه، فهنيئاً لك هذه الموهبة الإلهية العظيمة.

عودة إلى التحليل والمقارنة

وقبل أن نفارق هذا الحديث، أود أن ألقي نظرة تحليلية أخيرة إلى المقارنة بين الطائفة الثانية والطائفة الثالثة بنفس السياق.

إن (الحرّ) و(زهير)، رحمهما الله، إلتقيا أخيراً في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ووقفا مع الحسين عليه السلام، وقاتلاً وقتلا ونالا الشهادة معاً، وجاورا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الجنة.

فلماذا هذا التحليل والمقارنة؟

وقد لا تقل قيمة المعاناة المُرّة التي لقاها الحُرّ رحمه الله عن الانفتاح والإقبال السريع عند زهير رحمه الله.

فما هو جدوى هذه المقارنة والتحليل.

أقول: لاشك في صحة هذه المقولة، ولكن ما أكثر الناس الذين سقطوا في هذا العبور الصعب من الدنيا إلى الآخرة، ومن الأنا إلى الله، وعندما أرادوا أن ينتزعوا أنفسهم من فتن الدنيا، غلبتهم الدنيا، وما أكثر ضحايا هذا الطريق وخسائره، وصدق الله العلي العظيم حيث يقول: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا**

بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[١] إنّ أكثر الناس في خسر والذين يفلحون، فئة قليلة هم الذين تواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر (في حدود الإستثناء).

ولكي يسلم الإنسان من مجازفات هذا الطريق، وهي كثيرة وخطرة فعليه أن لا يعطي نفسه للدنيا، وهذا هو الشرط الأوّل الذي لابد منه على كل حال، وأن لا يأخذ من الدنيا كثيراً، وإنما يأخذ من الدنيا على قدر حاجته، وهذا ثانياً.

فإن الذي يأخذ من الدنيا تأخذ منه الدنيا لا محالة، إلاّ أنّ يأخذ منها على قدر حاجته، عفافاً وكفافاً، فلا تجد فتن الدنيا سبيلاً إلى نفسه.

وقد ورد في خطبة المتقين لأمير المؤمنين عليه السلام:

«وتراه، قريباً أمله، قانعة نفسه، منزوراً[٢] أكله، سهلاً أمره، ميتة شهوته»[٣].

وليس معنى ذلك أنّ يُحَرّم الإنسان طيبات الحياة الدنيا على

---

(١) العصر: ٢ – ٣.

(٢) أي قليلا.

(٣) نهج البلاغة ٢: ١٦٣، خ١٩٣، تحقيق الإمام محمد عبده.

نفسه، ولكن معنى ذلك أن يقتنع من طيبات الحياة الدنيا على قدر حاجته، لئلاّ تجد الدنيا سبيلاً إليه، وتملك عليه إرادته، وتحكم فيه.

ويعلمنا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كيف نعالج أنفسنا إذا إستصعبت علينا فيما نكره من التكليف والتقوى...بأنّ نعاقبها، فنمنع عنها سؤلها فيما تحبّ من لذات الدنيا وطيّباتها.

وهو نعم العلاج، يرّوض النفس على قبول الصعب الشاق من التكاليف والتقوى.

«إن إستصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يُعطها سؤلها فيما تحب»[١].

---

(١) روضة الواعظين - للفتال النيسابوري: ٤٣٩، مكارم الأخلاق للطبرسي:٤٤٧.

الفهرس